تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

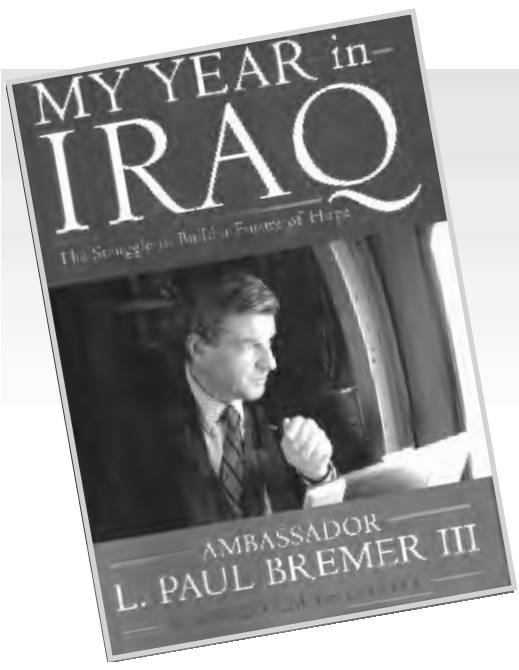

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الثانية و العشرون)

كان الحكيم قد أخبرني بأن الانتخابات ليست ممكنة في هذه المرحلة. "لكنّني ما زلتُ أفضّلُ قيام مؤتمر وطني ينعقد لاختيار إدارة انتقالية." ثمّ قضم قطعة آيس كريم مطعّمة بالفستق. "أو،" قال وكأنه يريد أن يمرر شيئاً، "فقط دعوا مجموعة السبع تختار الحكومة العراقية."

"هذا مستحيل، حضرة السيد،" قلتُ. "لن نعقد مؤتمراً وطنياً في هذه المرحلة. لم نقترب مجرد اقتراب من إجماع وطني عن كيفية اختيار، ناهيك انتخاب، تلك المجموعة، خلال هذا الوقت القصير. كما أننا لا نستطيع أن نسمح لمجموعة السبع أن تتحوّل إلى حكومة انتقالية أوسع. يدخل التحالف الآن المرحلة الأخيرة من تشكيل مجلس الحكم. آمل أن تكون أنت وزملاؤك جزءاً من هذه العملية."

من تعبيرات وجهه التي أوحت بالملل، خُيّل لي أنني كنت أناقش نظرية رياضية غامضة، وليس مستقبل بلده وحزبه.

"حسنٌ،" قال، مشيراً بحركة مقتضبة إلى أحد الخدم لكي يقوم بتنظيف الطاولة من الصحون، "أنوي الذهاب إلى لندن لقضاء عطلة يومين هناك."

"أنا بالتأكيد أفهم وأتعاطف مع حاجتك لبعض الراحة،" قلتُ. "ولكن مع كل احترامي، فإن المغادرة الآن ليست شيئاً حكيماً."

ذكّرته أننا نضع اللمسات الأخيرة على مجلس الحكم، وسوف ننجزُ الأمر خلال ثلاثة أسابيع. "نود أن نضم قادة جميع الأحزاب المهمة إلى المجلس،" أضفت. ومن ثمّ، وكما كنتُ قد ذكّرتُ الجعفري، حذّرته بأنه من الأهمية بمكان أن لا يرتكب الشيعةُ الخطأ الذي ارتكبوه في العشرينيات.

وفهمَ الحكيم الإشارة. تذمّر قليلاً ثم وافق على إلغاء عطلته، لكنّه بقي، وبشكل مدروس، غير ملتزمٍ حيال مشاركته في مجلس الحكم.

في ٢٣ حزيران، جاء دور الجلبي. كان قد عاد لتوه إلى العراق، بعد عشرة أيام في واشنطن أمضاها في اتصالات مع الكونغرس والإدارة، مؤلباً ضدّ خطط التحالف السياسية. كان الجلبي شخصيةً تتمتع بالنفوذ لدى أصحاب القرار. سبق وأن سمعت بأن المعلومات الاستخبارية المتعلّقة بأسلحة الدمار الشامل التي يملكها صدام تسرّبت إلى واشنطن عبر حزب المؤتمر الوطني العراقي، مع أنني لم أر أبداً هذه المعلومات.

كان الجلبي قد أعلن معارضةً علنية للتحالف في هذه الفترة، محاولاً إقناع زعماء آخرين في مجموعة السبع بمقاطعة مجلس الحكم، عبر إيفاد نوابٍ عنهم فقط إلى هذه الهيئة. كنت وضعت قاعدةً راسخةً تؤكد أن المجموعات التي تخدم في مجلس الحكم يجب أن تكون ممثّلة من خلال قادتها. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لضمان أن تأخذ الأحزاب ذاتها المسؤولية عن القرارات التي يتّخذها مجلس الحكم. ماعدا ذلك، يمكن لزعماء الأحزاب أن يضعوا ممثلين عنهم في المجلس، في الوقت الذي يتصيدون فيه القرارات من مواقعهم خلف الكواليس.

لكنني أعترف، على أي حال، بأن الجلبي هو أحد القلة من القادة العراقيين الذين يفهمون الاقتصاد. كان قد استخدم نفوذه مع مناصريه السياسيين في واشنطن لتشجيع الإطاحة بصدام حسين. وبالتالي، ومثلما هو الحال مع المجلس الأعلى، فمن الأفضل أن نضمّه إلى الخيمة، لا أن نبقيه خارجها. ولكن ليس من خلال دفع ثمنٍ باهظ جداً.

في اجتماع صعب جداً، ولمدة ساعتين، في مكتبي ذلك اليوم، ألقى الجلبي علي محاضرةً عن "أخطائنا" وكيف يجب أن "نتخلّى" عن خططنا في تشكيل مجلس حكم. "عوضاً عن ذلك، يجب عليكم أن تنظّموا انتخابات أقاليم."

صحيح، قلت في نفسي. من دون دستور، حيث لا تزال قوانين البعث سارية المفعول، مع عدم وجود إحصائيات، أو قوانين انتخابية، وغياب قوانين عن نشاطات سياسية حزبية.

تركتُه يفرغ كل ما في جعبته، ومن ثمّ استرجعتُ لقاءنا الأول في أيار. "أخبرت مجموعة السبع حينئذ بأنكم لا تمثّلون العراق. أنتم من جماعة المنفى. وقد طلبتُ منكم توسيع جماعتكم لتضمّ عراقيين عاشوا هنا تحت حكم صدّام، لإضافة نساء ومسيحيين وتركمان وزعماء عشائر. وافقتم على القيام بذلك، ولكنكم لم تضمّوا أحداً."

وبما أن مجموعة السبع قد فشلت في الامتحان، فإن التحالف راح يعمل ليلاً نهاراً، وخلال الشهر الماضي بأكمله، ساعياً إلى التعرف على مرشحين لمجلس الحكم، فيما كان الجلبي لا يزال يزور الولايات المتحدة.

"وجدنا الآن أكثر من ثمانين رجلاً وامرأة من كل أرجاء البلاد، ممن نظنّ بأنهم أكفاء،" قلتُ. "وأنا لستُ في صدد رمي كل هذا العمل الجاد من النافذة."

وأكدتُ له أنا نريده مع قادة الأحزاب الأخرى للمشاركة في المجلس. وهناك ستتركز القوة السياسية الحقيقية.

كان واضحاً أنّ الجلبي غير سعيد أبداً لأننا لم نسلّم السلطة مباشرة للمنفيين.

"سعادة السفير،" قال، "عبر إبطائكم هذه العملية السياسية، أخشى أنكم تخلقون انطباعاً بأن أمريكا تنوي المكوث طويلاً في العراق. وهذه ليست إشارة حسنة."

"دكتور الجلبي،" أجبتُ، "كان الرئيس واضحاً جداً. سوف نبقى في العراق حتى يتم إنجاز المهمة، ولن نمكث يوماً إضافياً آخر."

"أعرفُ أنه قال ذلك. ولكن من خلال التحرك البطيء، فأنتم تخلقون انطباعاً لدى بعض الناس بأن أمريكا تريد البقاء في العراق."

نهضتُ ثم اتجهتُ إلى مكتبي، وأمسكتُ بصورة لعائلتي كنت أحتفظ بها هناك. ثم عدتُ إلى حيث يجلس الجلبي، وجعلته يرى الصورة. "حسنٌ، إذا كان ثمة من يشك بذلك،" قلتُ، "هذا هو الضمان بأنني لن أبقى يوماً واحداً أكثر من الضروري." وأضفتُ أن لا أحد كان "محتلاً" رغماً عنه أكثر مني.

"بالتأكيد سوف آخذ هذا بعين الاعتبار،" قال. أثناء خروجه، لفتَ الجلبي بمرارة انتباه السفير البريطاني سويرز، بأننا، ومن خلال ما سمعه، استدعينا مرشحين "إسلاميين" إلى مجلس الحكم أكثر بكثير مما يجب. كان الجلبي في طليعة العلمانيين، المعروفين بحبهم لأشياء غربية، وليست إسلامية. عند هذه النقطة، كان الجلبي يرى بوضوح مستقبله السياسي في حكومة عراقية علمانية.

في الأسبوع الأخير من حزيران، أجريت نقاشاً مستفيضاً حول الحالة الأمنية مع الجنرال أبي زيد، القائد العام للقيادة المركزية، المعيّن حديثاً، والجنرال ريكاردو سانشيز، القائد العام الجديد لقوة المهمات رقم (٧): جميع قوى التحالف في العراق.

كان جون صديقاً أحترمه بشكل كبير، وهو أمريكي من أصل لبناني، يجيد اللغة العربية، ويعرف المنطقة جيداً.

أما ريك سانشيز فهو شخصية هادئة ومتأمّلة، وأثبتَ أنه رابط الجأش في الأزمات. ولأنه كان يدرك أهمية التنسيق المدني-العسكري اللصيق، اتفقنا، ريك وأنا، على فتح خطوط تواصل بين مكتبينا في القصر.

إذا أعطى البنتاغون الفريق العسكري الدعم الذي يحتاجه، كما كنت أعتقد، فإن بإمكاننا السيطرة على العنف المتصاعد.

وكجزء من جهودنا لإيجاد تمثيل عشائري مناسب في مجلس الحكم، عقدتُ اجتماعاً مع زعماء عشيرة شمر الكبيرة خلال الأسبوع نفسه. إن تلك السنوات التي أمضيتها كديبلوماسي في أفغانستان ومالاوي أظهرت لي الدور المهم الذي تلعبه العشائر في العديد من البلدان.

كانت عشائر العراق تعكس الحضارات القديمة لبلاد الرافدين. هكذا، فالعشيرة قد تضمّ أفراداً شيعة وسنّة، وفي بعض الحالات، أعضاء من مجموعات إثنية مختلفة.

وفي نواحي أخرى، تمثل عشائر العراق مفارقة واضحة. على السطح، تبدو وكأنها غير مهمة نسبياً، لأنّ أكثر من ٧٠ بالمئة من سكان العراق يعيشون في مناطق حضرية. ومن الصحيح القول إن زعماء العشائر لديهم نفوذ أقل الآن مما كان عليه الحال حين احتلّ البريطانيون البلاد قبل ثمانين عاماً. مع ذلك، تظل العشائر تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية والاجتماعية للبلاد. حتى العراقيين الذين يُعتبرون سكّان مدن لأجيال متعاقبة لا يحتاجون إلى تشجيع كبير لمناقشة أصولهم العشائرية. العديد منهم يعلنون بكبرياء أصولهم العشائرية، ويظهرونها في أسماء الكنية الأخيرة.

والعشائر معروفة باحترام السلطة، وتعي دائماً لعبة من هو فوق ومن هو تحت. وليس مستغرباً أن تقف دائماً إلى جانب من يمارس نفوذاً في بغداد، حتى يأتي من هو أقوى.

كان لقائي في ٢٤ حزيران، في مقرات سلطة التحالف المؤقتة، مع عشرات من شيوخ السنّة من عشيرة شمر تأكيداً على هذه الحقيقة. وشمر هي أكبر عشائر العراق، وتضم أعضاء شيعة وسنّة، بالرغم من أن زعاماتها هم عموماً من السنّة.

أتى الأعضاء إلى الجلسة، مرتدين عباءاتهم البيض المعطّرة. كان معظمهم يتجاوز عمره الستين، ولكن كان بينهم عضو أصغر سناً، هو الشيخ غازي الياور، والذي كنا نناقش تعيينه في مجلس الحكم. غازي في الأربعين من عمره، تلقّى تعليمه في الولايات المتحدة، وهو رجل أعمال ناجح في المملكة العربية السعودية. كان عمّه بمثابة الزعيم المطلق للعشيرة، ويعيش خارج الموصل. وعلى نقيض أقرانه، لم يقل غازي شيئاً خلال هذا الاجتماع. انضمت إلينا ليديا خليل، التي تجيد العربية، من فريق الحكم.

مثل جميع زعماء العشائر، كان هؤلاء الرجال يتحدثون كثيراً. وكانوا معجبين جداً بدورهم التاريخي في العراق، مستذكرين بنشوة تلك الأيام التي كانوا يحاربون فيها البريطانيين تارةً، ويساندونهم تارةً أخرى. وعند نهاية الاجتماع، الذي استمر حوالي الثلاث ساعات، وبعد الكثير من الشاي والتهاني المتبادلة حول تحرير العراق، تحدث زعيم المشايخ.

"السيد الحاكم،" قال، (مستخدماً المصطلح العربي "حاكم" لأنّ العشائر كانت تراني بهذا الدور)، "أريد أن أؤكّد لك الولاء المطلق لعشيرة شمر لكم وللحكومات التي حرّرتنا." أعقب ذلك دمدمات موافقة من الآخرين.

وبعد عملية الإحماء للدخول إلى موضوعه، استأنف قائلاً، "ولاؤنا مستمر، ولا يهزّه شيء." وبعد أن لمس صدره، أضاف أن مشاعره هذه في عقله، ولكن الأهم ما هو مكتوب في قلبه وقلوب زملائه. هنا أومأ مجلس الحكماء حوله بالموافقة.

"وخلال عقود من الزمن، أظهرنا دائماً الولاء، وسنكون أوفياء لهذا التقليد القبلي العريق." تتعالى من جديد أصوات الموافقة.

قال مختتماً حديثه،"إذا ما قرّرنا في لحظة ما خيانتكم فإنني أعدك بأننا سنحيطكم علماً بذلك قبل شهر."

مع رسالة الطمأنة هذه، مكتوبةً في قلبي، عدتُ إلى الشمال، في اليوم التالي، لمقابلة الزعماء الأكراد.

كان شمال العراق، الوطن القديم للأكراد، مختلفاً كلياً عن الجنوب. إنه منطقة من جبال خلاّبة، وتلال منحدرة، وأدغال عميقة، وأنهار متدفّقة، ومنحدرات مزهرة. هناك، وبسخاء واضح، تجد الأراضي مزروعة بالقمح، وعباد الشمس، ومختلف النباتات والأشجار المثمرة. المناخ أكثر برودة من الجنوب. آخر ثلوج الربيع كانت قد ذابت، والسفوح العالية بدت غنية بالخضرة. أية متعة تلك، بعد حرارة الوديان النهرية.يشعر الأكراد بالفخر تجاه ثقافتهم وتاريخهم. تتكلم الأغلبية منهم لغة شعرية فريدة، هي السورانية، وهذه أقرب ما تكون إلى الفارسية منها إلى العربية. حافظوا على موسيقاهم ورقصاتهم التقليدية. والأكراد يحبون طعامهم، الذي يُعتبر الأفضل في العراق، وهو مزيج رائع من الأطعمة العربية والتركية والفارسية. أغلبية المسلمين بينهم لا تتحلّى بحساسية دينية قوية، مقارنةً بباقي سكان العراق، بل إن بعضهم يحضّرون خمورهم بأنفسهم.

والأكراد شعب جبلي، يتصف بشدة البأس والاستقلالية. وعلى ما يقارب القرن، ظلوا في حالة تمرّد ضدّ حكّام بغداد، سواء كانوا بريطانيين أو عراقيين. القائدان، جلال الطالباني، المحصورة منطقته في الشمال الشرقي، ومسعود البرزاني، في الغرب، ظلاّ في حالة حرب مع صدام، ومع بعضهما، على مدى عقود.

مسعود البرزاني

احمد الجلبي

كان هدفي إقناع كليهما بالانضمام إلى مجلس الحكم. خلال مناقشتنا السابقة في بغداد، عبر الأكراد عن ترددهم للانصياع ثانية إلى أيّ حكم في بغداد.

وعلى مدى سنوات، قبل عام ١٩٩١، كان الأكراد يصرون على أنّ عراقاً حراً يجب أن يتمتّع ببنية فدرالية تحترم الشعب الكردي الفريد. وكان الاستقلال الذي تمتعوا به بعد حرب الخليج الأولى- المتمثّل بمنطقة كردستان ذات الاستقلال الذاتي، والتي قام بحمياتها من جيش صدام سلاح الجو التابع لقوات التحالف- كانت ترمز إلى طموحهم بدولة مستقلة.

كنت أعرف من خلال زيارتي السابقة أن الزعيمين الكرديين قد رحبا بالتحرير وحلّ حزب البعث وأجهزة الأمن. ولكن لم يكن أي منهما يريد أن يكون في مجلس الحكم. بل خطرت في بال الطالباني فكرة طائشة بالذهاب إلى أوروبا وآسيا، لمدة ثلاثة أسابيع، تماماً خلال الفترة التي كنّا نحاول فيها وضع اللمسات الأخيرة على مجلس الحكم.

قلتُ له في مقرّه في مدينة السليمانية، إننا "مصمّمون على المساعدة في خلق عراق فيدرالي." فرح طالباني لأنّ التحالف الآن، وافق على هدف كردي قديم، لكنّه كان لا يزال متشكّكاً بخصوص الانضمام إلى المجلس.

"سوف يتمتّع مجلس الحكم بنفوذ سياسي حقيقي،" قلتُ مؤكّداً.

وبعد ساعات عديدة من المناقشات، ولاحقاً على عشاء كردي فاخر، وافق طالباني على "تأجيل" القسم الأسيوي من رحلته، لكنه ظلّ مصراً على زيارة أوروبا.

"سعادة السفير،" قال أخيراً (...)، "سوف أوافق على الانضمام إلى مجلس الحكم استناداً إلى ما تملكه من حضورٍ شخصي."

سقط الهدف الأول. بقي الثاني.

في اليوم التالي قبضتُ على برازني. كان (...)، أقرب إلى زعيم تقليدي كردي. كان يرتدي لباساً فلكلورياً كردياً، هو الذي يعشق، بشكل لا يوصف، منزلَه الجميل في أعالي الجبال، في منطقة صلاح الدين، محاطاً برجال عشيرته وأشجار التفاح. لم أكن ألومه، خاصة حين تصل درجة الحرارة في بغداد إلى ١٢٠ فرنهايت، في حين تكون في منطقة برزاني ٩٠ فرنهايت.

"أكره بغداد،" أخبرني برزاني. "لا أريد أن أعيش أو حتى أسافر إلى هناك. ولكن إذا كنت تصرّ، فسوف أوافق على مضض، الانضمام إلى مجلس الحكم."

"أنا أصرّ فعلاً."

"إذاً، أنا موافق."

بدأت الأمور تأخذ إيقاعاً جديداً. وبدأنا، أنا وجون سويرز، نعقد اجتماعين يومياً لفريق الحكم الواسع. كنا قد أعلنا أننا نريد تشكيل مجلس حكم في وقت لا يتجاوز الخامس عشر من تموز. في هذه الأثناء، كان قد أصبح بين أيدينا وفرة من المرشّحين. ولم يتبقّ سوى غربلتهم واختيارهم، واضعين في الاعتبار الحاجة إلى مجلس تمثيلي حقيقي، لكنه صغير بحيث يكون فعالاً. وقدّرنا أن عدد أفراد المجلس يجب أن يتراوح بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين رجلاً وامرأة. وبسبب الطبيعة المتصدّعة للمجتمع العراقي، كانت المهمة صعبةً بشكل لا يوصف. لكنّ فريقنا تلقى دعماً إضافياً بوصول عرفان صديق من الخارجية البريطانية، وهو متخرج من أكسفورد، ويجيد اللغة العربية.

أولاً، افترضنا أن الشيعة يجب أن يكونوا أكثرية في المجلس، بما أنه يُعتقد بأنهم يشكّلون ٦٠ بالمئة من عدد السكان. وتالياً، كنا نريد أن نتأكّد بأن النساء- المضطهدات في عهد صدام، كما هو حالهن في كثير البلدان العربية الأخرى- ممثّلات بشكل جيد. كنا أيضاً نريد أن نجد زعماء سنّة وطنيين، ومرموقين.

يتبع